الدلالات الرمزية للألوان في المجتمع المصري

أ.د/ عادل كمال خضر
وكيل كلية الآداب ـ جامعة بنـها
لشئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة

للألوان في حياتنا دلالات متعددة ، ولعل أهم لونين اكتسبا دلالاتهما في المجتمع المصري هما اللونين الأبيض والأسود ، فالأبيض يدل على الإشراق والصفاء والنقاء والسعادة والهناء ، بينما يدل اللون الأسود على الحداد والحزن والتعاسة والاكتئاب ..

وقد يكون هناك دلالات متفق عليها للألوان الأخرى بدرجة أو أخرى داخل مجتمعنا ، من ذلك أن اللون الأخضر قد يدل على الشباب والحيوية والنماء والحياة .. والأحمر لون يشير إلى الثورة ، والنار ، والغضب وتأجج المشاعر والرغبات الجنسية ..

بينما هناك ألوان لم يستقر لها معنى محدد وتنفتح للدلالات المتعددة المتناقضة مثل الأزرق والبني والأصفر .. كما أن هناك ألوان مشتقة مثل البنفسجي والبرتقالي والرصاصي واللبني وغيرها تنفتح أكثر وأكثر لكثير من الدلالات المتناقضة والتي تختلف من ثقافة لأخرى ومن فرد لآخر ..

والألوان في حضارتنا المصرية ليست ثابتة الدلالة ، فقد تغيرت دلالة بعض الألوان عبر الزمن . ففي الحضارة المصرية القديمة كان اللون الأسود يرمز للبعث والحياة الخالدة ، بينما هو الآن في مجتمعنا المصري المعاصر رمز للموت والحداد والحزن ، أما اللونين الأبيض والأخضر فقد ثبتت دلالتهما عبر الزمن ، حيث يدل اللون الأبيض على السعادة والفرح ، بينما يدل اللون الأخضر على الشباب والحيوية والنماء ..

وفي حين أن دلالة اللون الأسود في المجتمع المصري المعاصر قد أخذ دلالة الحزن ، وخاصة أن النساء ترتدين الأسود في حالات الوفاة .. إلا أنه في المناطق الريفية بمصر نجد أن المرأة ترتدي الجلباب الأسود والطرحة السوداء ليس دليلاً على الحزن بل كدليل على الحشمة والوقار ..

وتختلف دلالة اللونين الأبيض والأسود باختلاف الثقافات ، ففي حين نجد في مجتمعنا المصري أن اللون الأسود هو الذي يدل على الحزن والحداد ، نجد أن اللون الأبيض في الصين هو الذي اكتسب دلالة الحزن والحداد .. فليس شيئاً في الرمز هو الذي يجعله ذو دلالة محددة بل ما يتفق عليه أفراد المجتمع من دلالات هي التي يكتسبها الرمز المحدد .. فدلالة الرموز اكتساب حضاري ومن ثم يكون لكل حضارة رموزها .. وفي حال تشابه الرموز تختلف الدلالات .

وفي بعض المهن يتم استخدام ملابس ذات ألوان معينة لها دلالاتها ،

فالطبيب يرتدي بالطو أبيض ، كذلك ترتدي الممرضات الزي الأبيض ، وفي العيادات والمستشفيات يتم دهان الحوائط والأسرة باللون الأبيض وكذا تكون الملاءات بيضاء ، فاللون الأبيض في مهنة الطب تدل على الاستبشار والتفاؤل باستعادة المريض لحيويته وأملاً في التقدم في العلاج والشفاء بإذن الله .. بينما نجد أن المحامين والقضاة في أثناء نظر القضايا بالمحاكم ، وكذا أساتذة الجامعات في أثناء مناقشة الرسائل العلمية بالجامعات ، وأيضاً في مناسباتهم وأعيادهم يرتدون أرواب سوداء ، كدليل وقار وهيبة وعلو شأن القضاء والعدالة والجامعة والعلم ..

وقد تكون الطبيعة الجغرافية للبلد هي المحددة للزي الأبيض كأنسب ما يكون للملاءمة مع الجو الحار ، وهو ما نجده في شكل الجلباب الأبيض الذي يرتديه العرب في دول الخليج ، وبعض الدول الأفريقية ، وكذلك أيضاً في صعيد مصر أو في الواحات وفي سيناء .

ومن الملاحظ أن انطباعاتنا عن الناس تكاد تكون محصورة بين اللونين الأبيض والأسود ، وأننا نصف بهما قلوب الناس ، حيث نصف شخص ما بأن قلبه أبيض لأنه يعود من غضبه سريعاً ويتصافح مع خصمه ، في حين نصف شخص آخر بأن قلبه أسود لأنه يظهر العداوة ويتربص بأصدقائه ولا يتسامح معهم .. ومن ثم فقد اكتسب اللون الأبيض الدلالة على الطيبة والخير ، بينما يدل اللون الأسود على الخبث والشر ..

وفي القرآن الكريم نجد الإشارة إلى دلالة اللونين الأبيض والأسود في قوله تعالى : " يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ، وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " (آل عمران : ١٠٦ - ١٠٧) . فالأسود يدل على الكفر والعذاب والنار ، والأبيض دلالة على الإيمان والرحمة والجنة .. حيث يوم القيامة يكون وجه المؤمن أبيض بطاعته لربه وعمله الطيب ولحسناته واستبشاره وللنعيم ، ووجه الكافر أسود بمعصية ربه وسوء عمله ولسيئاته وللعذاب الأليم ..

وقد تحولت دلالات اللون إلى ألفاظنا في تعاملاتنا اليومية ، حيث نجد صباح الخير وقد استبدلت بتحيات مختلفة مشتقة من اللون الأبيض مثل : صباح النور ، صباح الإشراق ، صباح اللبن الحليب ، صباح الإشطة .. أو أن يتم تعتيم الصباح فيكون الرد على الآخر بتحيات مشتقة من اللون الأسود مثل : صباح الزفت ، صباح الأطران ، صباح النيلة ، صباح الهباب ..

والقول بالمثل حيث يبدأ البعض بصبغ النهار باللون ، فيلقي تحية الصباح قائلاً للآخر : " نهارك أبيض من لبن الحليب " ، وقد نسمع من يقول للآخر في حال اختلافه معه " نهارك أسود " .. وبين الأبيض والأسود ، نجد البعض يأخذون موقفاً وسطاً حيث يقولون لبعضهم البعض " نهارك أزرق " ..

خالص تحياتي
أد. عادل كمال خضر
E. mail : adelkhedr@fart.bu.edu.eg